تفكير «سعيد توفيق»

06/24/2025- جريدة الوطن

عمار على حسن

جمع الدكتور سعيد توفيق، أستاذ علم الجمال والفلسفة المعاصرة بكلية الآداب جامعة القاهرة، متفرقات من مقالاته، فانتظمت لديه أبواب فى موضوعات محددة مهمة حول الدين والأخلاق والسياسة والفلسفة والأدب والفن والجمال، وهى موضوعات تتلاقى فى رأسه أحياناً فيصنع منها سبيكة متينة، وتفترق أحياناً فيبين ما بينها من تباين، وتتوازى فى بعض الحالات فيضع الحدود الرقيقة بينها فى فهم واقتدار. وكل هذا يحمله كتاب فى أربعمائة صفحة من القطع فوق المتوسط صدر عن الدار المصرية اللبنانية بالقاهرة تحت عنوان «ومضات من الفكر.. فى السياسة والدين والأخلاق والفن والحياة».

ورغم أن «توفيق» قد اكتمل باحثاً ودارس فلسفة وأستاذاً لها قبل أن نعرف مواقع التواصل الاجتماعى، إلا أنه أدرك أهمية مخاطبة أبناء جيل الإنترنت والذكاء الاصطناعى، الذى لا صبر لدى أغلبه على قراءة كتب الفلسفة التى تحفر عميقاً فى موضوع واحد فتفرد له كتاباً كثير الصفحات، وهنا يقول: «الكتابة الأكاديمية فى مجال النظريات والاتجاهات أو التيارات الفلسفية، يمكن بالتأكيد أن تكون مفيدة للأكاديميين المتخصصين إن كانت كتابات رصينة، ولكننا حينما نكتب للقارئ والمثقف العام يجب أن تبقى النظريات والتوجهات الفكرية فى الخلفية، وأن ترك البحث فى التعرف على الأصول النظرية للباحثين المتخصصين، ولمن يكون لديهم اهتمام بمجمل كتاباتى، وللقارئ الشغوف الذى يريد الاستزادة من المعرفة».

والدكتور سعيد توفيق من أولئك الذين يدركون أن الفلسفة ليست أفكاراً مجردة فقط، تستغلق على أذهان العموم، أو مسائل تحلق بعيداً دون أن تحط على الأرض، إنما يراها أفكاراً نابتة فى أرض المجتمع، تنشغل بما يهمه، وتسعى إلى حل مشكلاته التى لا تتوقف عن اعتراض طريق الناس، لذا جاء كتابه متفاعلاً مع ما يجرى الآن وهنا، وبعضه شغل البشرية منذ أمد بعيد، ولا يزال، حتى وجدناه يناقش تحت عنوان «فى الحياة اليومية» تأملات حول وباء كورونا، والزلزال، وكرة القدم، ومواقع التواصل الاجتماعى.

الكتاب فى الأصل مقالات نشرت منجمة بصحف «الأهرام» و«المصرى اليوم» و«عمان» و«الاتحاد» وغيرها، لكن تغلب ما تقتضيه الكتابة للصحف من تحديد فى الموضوع وعدد الكلمات، بكتابة أكثر من مقال تعالج زوايا متعددة للقضية التى يطرحها، فتكتمل الرؤية إلى حد كبير، تاركة زوايا أخرى يمكن للقارئ أن يثير حولها تساؤلات أو تأملات.

جاء الكتاب معبراً عن انشغال مؤلفه، وهى مسألة كشفت عنه مؤلفاته السابقة، وعن منهجه الذى يميل إلى المقاربة متعددة الأنواع، أو «الدراسات الثقافية» التى صارت صيحة علمية تنحو إلى موسوعية النظرة، أو الاعتقاد الصائب فى أن الظواهر الإنسانية لا يمكن تفسيرها وفق عطاء علم فرعى واحد، لأن العناصر التى تشكلها تأتى متشابكة ومتداخلة فى الواقع المعيش.

يمكن للقارئ الصبور أن يقرأ أبواب الكتاب متتابعة، ليجد صاحبه قد سلك مسار برهنة وحجاج متناغم، ينتقل بنا من قضية إلى أخرى، ومن فكرة إلى أختها. أما القارئ الملول فبوسعه أن يتصفح الفهرس، ويتخير الباب أو الفصل أو الجزء الذى يروق له فيقرأه، وينتقل إلى غيره دون التزام بتتبع الصفحات من البداية إلى النهاية. ويمكن للقارئ الأكثر مللاً أن يلتقط مقالاً واحداً ضمن مقالات عدة عن قضية ما فيقرأه وحده، وهذا يصلح فى بعض أجزاء الكتاب.

لكن أجزاء أخرى تقتضى أن يلتزم القارئ بتتبع ما يأتى تحت العناوين وفق انتظامه فى الكتاب، لأن المؤلف يضع فكرته المركزية حول القضية التى يتناولها فى البداية ثم تأتى المقالات الأخرى شارحة أو مكملة أو معالجة لزوايا معينة، متوزعة على السياسة لكن بطريقة أعمق تدرس أصول الحضارات وعنصرية الغرب وازدواج معايير، والعولمة والنظام الدولى والمواطنة وإسرائيل كأداة للاستعمار الجديد. وفى الدين يتناول علاقته بالهوية والرؤية الإسلامية المضادة للإسلام نفسه، والإيمان والإلحاد، والعلمانية ومواجهة الإرهاب. وفى الأخلاق يدرس علاقتها بالعيش الإنسانى فينظر إلى الفضيلة والنفاق والحرب والطب وأخلاقيات السياسة، ثم يتناول علاقة الجمال بالفن والأدب، خصوصاً الشعر، والفلسفة والدين ويُعرّج على قضية الإبداع والعبقرية والنقد والموسيقى، ليتناول بعدها قضايا وجودية مثل القلق والاغتراب والموت والألم والسعادة.

فى كل هذا يتسم أسلوب سعيد توفيق بالسلاسة والوضوح، جامعاً بين الإفادة والمتعة، سواء وهو يأتى باستفاضة أحياناً على ذكر أفكار بعض الفلاسفة الكبار من الأقدمين والمحدثين والمعاصرين فيشرحها ويناقشها، ويقوم بتبيئتها كى تكون صالحة لإفهام متداولى لغتنا العربية وفق قاموسها المعاصر، وقادرة على الإسهام فى حل مشكلاتنا ومعضلاتنا الفكرية الراهنة.

لا يقدم هذا الكتاب رؤية فكرية حول قضايا معينة فحسب، بل يطرح أيضاً نهجاً مفيداً فى التأليف أمام أولئك الذين يكتفون بإيراد مقالات يكتبونها منجمة، وربما على فترات متباعدة، وفى قضايا عدة، متسلسلة وفق تاريخ نشرها، رغم أن بعضها كان بحاجة إلى تحديث وتجديد أو استزادة واستفاضة.